الأمومة في الشعر العربي

د. خليفة أحمد العتيري
قسم اللغة العربية – كلية الآداب – الزاوية
جامعة السابع من إبريل

مقدمة:

الحديث عن الأمومة، حديث عن موضوع له مكانته في النفس الإنسانية فقد كرم الله الأم وأمر بالإحسان إليها، فقال تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبد إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾(1).

لقد أمر الله سبحانه بالإحسان إليها، وذلك لجميل فضلها علينا، فهي التي قاست في حملنا المشاق، غذتنا من وريدها الطاهر تسعة أشهر وعانت في وضعنا أشد الآلام، كادت أن تصل بسببنا إلى حد الموت، ثم كابدت في تربيتنا حولين كاملين أرضعتنا من لبنها الصافي، واحتضنتنا في حضنها الدافي، قال تعالى ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً علي وهنٍ وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك﴾(2).

كل ذلك جعل موضوع الأمومة من أهم الموضوعات التي عالجها الأدب العربي، فلم نجد كاتباً، أو شاعراً، أو أديباً إلا وقد أدلى بدلوه في هذا الجانب، فما أروع قول الأديب المهجري (أمين مشرق)[3] عندما خاطب نبع الحنان وواحة الأمان بقوله:

"يا علة كياني، ورفيقة أحزاني، يا رجائي في شدتي وعزائي في شقوتي، يا لذتي في حياتي وراحتي في مماتي، يا حافظة عهدي، ومطيبة سهدي وهادية رشدي، يا ضاحكة فوق مهدي، أمي، وما أحلاك يا أمي!

إذا تركني أهلي فأنتي لا تتركيني، فإن ابتعد عني أحبابي فأنتي لا تبتعدين، فإن نقمت علي الحياة فأنت تصفحين وترحمين، يا مسكنة وجعي وألمي ومبددة بؤسي وهمي، أنت وما أصفاك يا أمي!"[4].

ويستمر هذا الأديب يعدد مآثرها وقيمتها، حيث كان يعاني الغربة من جهة، وبعد الأم الحنون من جهة أخرى، مما جعله يتوجع من هذه الآلام، ويبث شوقه إلى حضن الأم الدافئ "آه ما أقسى الغربة وما أمر الوحشة ! قد كرهت البعاد يا أمي ! فاشتاقت نفسي إلى ماضيها الأمين"[5]، ويذهب به الشوق ويأخذه الحنين إلى أن يقول : " قد غبت عنك يا أمي فغاب عن عينيّ وجهك الباسم بملامحه الرقيقة الرزينة ومعانيه الدقيقة الحنونة"[6].

ويأتي الشعر العربي طافحاً بما جادت به قرائح الشعراء في الأمومة، حيث نضم الشعراء في هذا الجانب قصائدهم، من خلال عاطفة مشوبة بالحب والحنين للأم فلم نجد ديواناً من دواوين الشعراء إلا وقد تزين بقصائد عن الأم، وذلك لمكانتها العظيمة، فها هو أحد الشعراء عندما فجع بفقدان أمه فحاول البكاء ولكن شدة الحزن منعته فبقى صامتاً ولسان حاله يردد ما قاله الشاعر :

فزعت إلى الدموع فلم تجبني
وفقد الدمع عند الحزن داء
وما قصرت في جزع ولكن
إذا غلب الأسى ذهب البكاء[7]

وهذا الشاعر عنترة العبسي يذكر أمه التي تخاف عليه من الموت وتحاول أن تبعده لضاها، لكن عنترة يرى ما لا تراه أمه، حيث قال:

تعنّفني زبيبة في الملام
علا الإقدام في يوم الزحام
تخاف عليّ أن ألقى حمامي
بطعن الرمح أو ضرب الحسام(8)

فالأم دائمة الحضور في الفرح، والترح، في الشدة ،والهناء، فها هو الشاعر أبو فراس الحمداني يوصي أمه ويدعوها إلى الثقة بالله، بقوله :

لولا العجوز بمنبج ما خفت أسباب المنية
لكان لي عما سألـ ـت من النداء نفس أبية
ولكن أردت مرادها ولو انجذبت إلى الدنية(9)

وعلى الرغم من معاناته فإن الشاعر يحمل هموم أمه ويدعوها إلى الثقة بالله وطرد اليأس والقنوط، لأنه هو من يعرف حاله وحال ما تعانيه أمه من فراق ولدها فيخاطبها بقوله:

يأمنا! لا تحزني وثقي بفضل الله فيه!
يا أمنا !لا تيأسي لله ألطاف خفية(10)

وترهقه الحسرة عندما لا يجد من يعينه على تخفيف مصابه، فالأم تعاني مرضين، مرض الجسم، ومرض النفس، وهي تكابد هول فراق ابنها، وما تعانيه من قلق وحزن، جعل منها إنسانة بائسة لا ينقطع دمعها، وهي تسأل عن أحبتها الذين يحتجزهم العدو:

يا حسرة ما أكاد أحملها آخرها مزعج وأولها
عليلة بالشام مفردة بات بأيدي العد معلّلها
تمسك أحشاءها على حرفٍ تطفئها، والهموم تشغلها
إذا أطمأنت وأبين أو هدأت عنت لها ذكرةٌ تقلقها(11)

وعندما تأتيه أخبار موتها فإن قلبه يتفطر من شدة حزنه، فقد ذهبت التي كانت يسكب دموع ضعفه بين يديها، ويشعر بالأمان في حضنها الدافئ فيقول :

أيا أماه كم سر مصون   بقلبك مات ليس له ظهور
أيا أماه كم بشرى بقربي   أتتك ودونها الأجل القصير
إلى من أشتكي ؟ ولمن أناجي   إذا ضاقت بما فيها الصدور
بأي دعاء داعية أوقى؟   بأي ضياء وجهٍ استنير (12)

إن قيد الأسر لم يؤثر في الشاعر كتأثره في بعده عن أمه، الذي يتمنى أن يراها، وأن تدعو له بأن يفك أسره، فيعود حراً طليقاً، يستبشر بقربها، فيخاطبها بقوله :

أيا أم الأسير سقاك غيث   بكرهٍ منك ما لقي الأسير
....
إذا ابنك سار في بر وبحر   فمن يدعو له أو يستجر؟
حرام يبيت قرير العين   ولومٌ أن يلم به السرور! (13)

إن مكانة الأم لا تعلوها مكانة، وعندما يفتقدها المرء فإنه فقد شيئاً عظيماً، ويزيد من هول المصيبة عندما تموت الأم، وهي بعيدة عن ولدها، فها هو الشاعر، محمود سامي البارودي قد نُعيت له والدته وهو في الحرب فانفجرت شاعريته بقوله:

هوى كان لي أن ألبس المجد معلماً
فلما ملكت السيف عفت التقدما

....

لعمري لقد غال الردى من أُحبه
وكان بودي أن أموت ويسلما
وأي حياةٍ بعد أم فقدتها
كما يفقد المرؤ الزلال على الظماء
تولت فولى الصبر عني وعادني
غرام عليها شف جسمي وأسقما
ولم يبقى إلا ذكرة تبعث الأسى
وطيف يوافيني إذا الطرف هوّما

وكانت لعيني قرة ولمهجتي
سروراً فخاب الطرب والقلب منهما(14)

لقد حرك الجزع قلب البارودي بفقدانه هذه الحبيبة، وهي بعيدة عنه، التي رأى إن الحياة بعدها نوع من الشقاء، فذهبت به شدة الحزن إلى أن تمنى الموت بفراقه لأمه لكن اعتقاده بالقضاء والقدر هو الذي جعله يستغفر الله فيقول:

فلولا اعتقادي بالقضاء وحكمه
لقطعت نفسي لهفة وتندماً
فيا خبراً شف الفؤاد فأوشكت
سويداؤه أن تستحيل فتسجما(15)

وها هو الشوق يحرك شاعرية المتنبي، التي يصف فيها مفجوعته التي ماتت بسبب شوقها، هذا الشوق الذي لا عيب فيه لأنه شوق أم إلى ولدها :

لك الله من مفجوعة بحبيبها
قتيلة شوق غير ملحقها وصما
أحن إلى الكأس التي شربت بها
وأهوى لمثواها التراب وما ضما(16)

لقد ماتت جدته سرورا بكتابه الذي أرسله لها، هذا السرور الذي حرمه الشاعر على نفسه بعد رحيلها، الرحيل الذي يعده الشاعر سم زعاف:

أتاها كتابي بعد يأس وترحة
فماتت سروراً بي فمت بها هماً
حرام على قلبي السرور فإنني
أعد الذي ماتت به بعدها سما(17)

والأم عند الشابي قلب دافق بالعطاء لا يتوقف، وهو وفي لهذا القلب الذي وإن نسيه الآخرون، فإنه لم ينساه وهو يتوق إلى لقاءه ويود أن تمتزج روحه بروحها فداء لها:

كل نسوك ولم يعودو يذكرونك في الحياة

والدهر يدفن في ظلام الموت حتى الذكريات
إلا فؤاداً، ظل يخفق في الوجود إلى لقاك
ويودّ لو بذل الحياة إلى المنية، وافتداك(18)

لقد دفعه حبه العارم للأمومة إلى إشراك الطبيعة في رسم لوحة جميلة تكشف عن شاعريته مطبوعة بطابع رومانسي جميل :

ويصغي لصوتك في الوجود، ولا يرى إلا بهاك
يصغي لنغمتك الجميلة في خرير الساقية
في رنة المزمار في لغو الطيور الشادية
في ضجة البحر المجلجل، في هدير العاصفة
في لجة الغابات، في صوت الرعود القاصفة
في نقية الحمل الوديع، في أناشيد الرعاة
بين المروج الخضر، والسفح المجلل بالنبات(19)

لقد حشد كل الأصوات بدرجاتها المتنوعة، لتشاركه في وصف قلب الأم الحنون، وعندما عجز حاول أن يستدعي صور الطبيعة جميلها، وذميمها، صغيرها وعظيمها، علها تستطيع أن تشاركه فيما يحس به من حب عفيف عصف به، ذلك هو: (قلب الأم الطاهر):

في كل أصوات الوجود : طروبها وكئيبها
رخيمها وعنيفها ، وبغيضها، وحبيبها
ويراك في صور الطبيعة حلوها، ودميمها
حزينها، وبهيجها، حقيرها، وعظيمها
في رقة الفجر الوديع، في الليالي الحالمة
في فتنة الشفق البديع، وفي النجوم الباسمة
في رقص أمواج البحيرة، تحت أضواء النجوم
في سحر أزهار الربيع، وفي تهاويل الغيوم

....

أعرفت هذا القلب في ظلماء هاتيك اللحود؟
هو قلب أمك، أمك السكرى بأحزان الوجود(20)

إن حب الأمومة في قلب الشاعر راسخ رسوخ الجبال لا يتغير مهما بعدت الذكريات فهو لا يمل من ذكر ذلك القلب الحبيب الذي استشرى حبه في قلبه العامر:

سيضل بعد ذكرياتك : لايملّ، ولا يميل
كالأرض تمشي فوق تربتها المسرة والشباب
والليل، والفجر المجنح، والعواصف، والسحاب
والحبُّ تنبت في مواطنه الشقائق، والورود(21)

أمّا الأمومة عند الشاعر (رشيد خوري) فهي قلب كبير، يظم كل شيء في الحياة، كيف لا؟ والأم أساس الوجود، وقلبها مكمن العواطف الصادقة:

فؤاد الأم يالك من فؤاد
يضم من العواطف من يضم
غلطنا حين صلينا (أبانا)
كما قالو لنا فالله أم(22)

أما الشاعر (نادر هدى) فقد جعل ديوانه الثامن بلوحاته الثلاث الطويلة، وهي إلى (المعلقات) أقرب أهداها إلى الأم، منها (سأعد أيامي بموتكِ) بكسر الكاف في موتك، حيث أوقفها على والدته التي رحلت عن دنيانا الفانية، فقال:

كان يلزم كل هذا
لأقرأ سفرك الفضيّ
على آيٍ
وحرفٍ
من بها الروح
وجمر الألم
لأجمع بيدي دمعي

وأخط المداد
مداي في الهتاف والكبد
أمي أيتها النابضة ثنايا الوجد آهاً
يا انبلاج الفجرِ
يا بذار الارضِ
يا حلم المطرِ
كان يلزم كل هذا
لأقرأ سفرك
أبدأ بالحمد
حمد من لا يحمد على مكروه سواه
و أتجرع الصبر على دمٍ صار ماء
وجسدٍ كأنه (فزاعة) يشتمل الخواء
فمن لي
أن تتآكلني النوازل
أبدو كرسمٍ
تذوبني السنون (أعشاراً)(23)

والشاعر مشدداً إلى حنان الأمومة حتى الجنون، إن غابت عنه فإن وجدانه لا يزال يحتفظ بذكرياتها الجميلة :

كل شيء يأخذني إليك
زيت قنديلي أن يضيء
قهرني أن يعطرها التنأي والهيام
مساءتي أن يقطعها التجلي

....

كل شيء يأخذني إليك
فأي الجبال تعصمني

أي المنامي تسير غربتي
أي البلاد تكلني
وكلها اصرّ عليّ (24)

نتائج البحث:

يمكن أن نحدد نتائج البحث في الآتي:

1. يتضح بجلا مكانة الأمومة في الشعر العربي بصورة واضحة فمن النادر أن نجد ديواناً لشاعرٍ عربي يخلو من ذكر الأم.
2. تعامل الشعراء مع هذا الموضوع بحرارة قوية جعلت من شعرهم لوحات خالدة في أدبنا العربي الأصيل.
3. أشرك الشعراء الطبيعة في أشعارهم فكانت لوحات رومانسية في الشعر العربي.
4. عند رثاء الأم يغوص الشاعر في أعماق المعاني ويضفي على النص عمقاً أدبياً من خلال عاطفة مشبوبة بحب الأم.
5. يستخدم الشعراء مفردات الحب والحنان التي تليق بمكانة الأم وقلبها الحنون.
6. يختار الشعراء الموسيقى المعبرة عن حنان الأم في أشعارهم الهادئة.
7. تلون شعر الأمومة بصدق العاطفة في كل القصائد.
8. إبراز معاني الرقة والحنان والعواطف الرومانسية عند تناولهم لموضوع الأم في أشعارهم.
9. اختيار الألفاظ المعبرة التي تليق بمكانة الأم في نفس الشاعر.
10. توظيف البلاغة في رسم الصورة الجميلة للأمومة أنتجت لوحة فنية تشع بعبق الأمومة وتعكس ما لهذا الموضوع من أهمية في الشعر العربي.

الهوامش:

1) الإسراء: 23 – 24.
2) لقمان: 14.

3) أديب لبناني مهجري، ولد في غرزوز، بمنطقة جبيل سنة 1894، أقام فـــي الولايـــات المتحدة الأمريكية، انظم إلى الرابطة القلمية في نيويورك، وكان من أعضائها البارزين، ينظر: أروع ما قيل في الأم، أميل ناصف، دار الجبل بيروت ص82.

4) المصدر نفسه، ص82-83.

5) المصدر نفسه، ص83.

6) المصدر نفسه، ص82-83.

7) ديوان محمد سامي البارودي، دار الجبل، بيروت، ط1، 1995، ص36

8) ديوان عنترة، دار صادر بيروت، ط3، 2003، ص210.

9) ديوان أبي فراس، رواية ابن خالوية ، دار صادر بيروت، 1990، ص317.

10) المصدر نفسه، ص318.

11) المصدر نفسه، ص241.

12) المصدر نفسه، ص163.

13) المصدر نفسه، ص162.

14) ديوان محمود سامي البارودي، مصدر سابق، ص491.

15) المصدر نفسه، ص491.

16) ديوان المتنبي، شرح العكبري، شركة ومطبعة البـــابي الحلبـــي، مـــصر، ط2، 1956، 102/4.

17) المصدر نفسه 4/ 104.

18) أبو القاسم الشابي، شاعر الحب والثورة: رجاء النقاش، دار القلم، بيـــروت، ط1،1971، ص110.

19) المصدر نسه ص 110-111.

20) المصدر نفسه ص111.

21) المصدر نفسه، ص112.

22) ديوان القروي، رشيد سليم الخوري ،1971 - لا ط - 1/ 138.

23) سأعد أيامي بموتك، نادر هدى، دار الكندي للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2004، ص24.

24) المصدر نفسه، 32-33 .